

الأعاجيب أن جد والدى ولد بينما كان أبوه يطارد ثعلبا ، فلما جاءه البشير لم يعباً ببشراه واستمر فى الطراد وهو يقول « لحا الله ذلك الضيف الخيىث ، ما كان ضره لو تمهل رويدا حتى نصرع الصيد ! » .
وكان أخوه فرانسوا أشد منه ولوعا بالقنص وهياما . كان يهب من رقاده فيسرع إلى كلابه ثم إلى جواده ، ثم يظل يرمى العصافير حوالى القصر حتى تحين ساعة الخروج للقنص .

وكان هذان الأخوان كأنهما من العمالقة ، ماشئت من عرض وطول وضخامة مناكب ومثانة ألواح وصلابة عظام ، وماشئت من أيد وقوة ، وحمية وفتوة ، وسطوات وفتكات ، وقد وهب الله الأصغر « فرانسوا » بسطة فى العرض والطول ، وصوتا جهوريا أجش كأنه قصف الرواعد المرزمات ، إذا انبعث فى أرجاء الغابة ارتجفت لهوله أوراق الدوح الباسق ارتجافها تحت عصفات الزرع النكباء ، ولو اطلعت على ذينك الجبارين وقد اعتليا صهوتى جواديهما العتيقين وأركضاهما فى ميادين الطراد ، لحسبت « ريكاردوس قلب الأسد » و « وأيفانهو » يتساجلان لحرب عوان ، وعمرو بن معد يكرب ، وزيد الخيل يتباريان فى حومة طعان ، وكأن الجوادين تحتهما هيكلان عليهما بركان ، وطودان فوقهما هضبتان .

فى شتاء ١٧٦٤ أشتد البرد وجاعت الذئاب حتى ألهب السغب أحشائها ، فتتمرت واستأسدت وهددت البلاد بالخطر الجسيم والشر العميم ، فجعلت تندنو من العمران وتلوب حول القرى والدساكر وتحوم ، وربما افترت سارى الليل فى روحاته ، وراعى الشاة فى غدواته ، ثم ازداد شرها فصارت تغشى أفنية البيوت طول الليل دائبة الصراخ والعويل ، كلما أمكثتها الفرصة السانحة أخلت الحظيرة من الظلف ، والإصطبل من الحافر .

وتحدث الناس أن ذئبا أغبر ضخما جسيما قد طغى طغيانا ، وعات وأفسد فالتهم طفلين ، واختطف ذراع امرأة ، وأهلك عددا عظيما من كلاب القرية ، واستباح حريم الأجران والحظائر فاستبى ما شاء من الماشية ، وقد أقسم الفلاحون